من شذا الجزيرة الفياح :

قصة المهادي الشمري

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي)
(الألباب ما كان حديثاً يفترى)
(ولكن تصديق الذي بين يديه)
(وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة)
(لقوم يؤمنون)
[سورة يوسف]

للكاتب المعروف الاستاذ السيد

يوسف رجيب

طبعت على نفقة السيد عطا آل عطا

— المطبعة العلمية في النجف — سنة ١٣٦١ هـ

لصاحبها محمد ابراهيم الكتبي ١٩٤٢ م

ما احسن القصص واطيبه ، بل ما الذه سمراً واحلاه اذا كان حديثاً ممتعاً عن هذه الجزيرة العربية ! عن طباعها وسؤددها . عن تربة نقية لم تدنس بأوضار الخداع ولم يتسرب الى جنباتها مكر او رياء كما تسرب هذان الخبيثان الى المدن وتغلغلا في اوساط الحضارة حتى عادت بهما الدنيا وحوشاً كاسرة تستباح بهما المحارم والمظالم ..

فما احسن القصص العربي اذن ، و ما انفعه للناس ، فان فيه عظة وذكرى ، والموعظة الحسنة تنفع المؤمنين .

* * *

ما برح التاريخ العربي حافلاً باشهى الاحاديث واطايب النوادر وابهى القصص واسنى ما تتوق اليه النفس البشرية المؤمنة من عمل فيه مجد وكرامة

والمجد في الحياة سر ثمين لا يستخرجه و يتحلى به الا اهله فهو من صفات البشر العليا ، اليه تهفو الافئدة وتصبو العقول وما المجد الا الترفع عن الدنايا وعما يضر الناس ، فهو الرشد والصلاح وهو السبيل الى الخير والعمل الجميل ، وما اشد افتقار الانسان الى انتهاج منهج المجد الوضاء فانه المنار الذي يعلو به عما ينغمس فيه الماديون والمنكرون للجزاء والعقاب .

وليس النا س كلهم يقفون عند الحدود والقيود حدود الله وقيود المجتمع ، وذاك لأ ن البشر على الرغم من كل الارشادات التى اعلنها الأنبياء والأوصياء واهل الحكمة والعرفان ، على الر غم من ذلك كله فان البشر لم يزل في غفلة وضراوة فهو فى حاجة الى التذكير للأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات والمو بقات فالنفس ما برحت امارة بالسوء وشيطانها بمرصد منها يغريها بالشرويدعوها الى الحرم والآثام وعلى هذافلابد من اعلان شأن الحق والتنويه بالاستمساك بالفضيلة والمجد وانه لحري بالكتاب ان يسجلوا كل حادث ينسجم مع الكرامة والسداد دعوة الى الخيروجلباً على الشر ، فعسى بذلك ان تتجه النفوس الى ما فيه خيرها وفلاحها حتى يقوم عماد الحق وينهار صرح الباطل ؛وكما ان المنبر مقاماً محموداً بين المجتمع لانه يرشد ويهدي الى الصواب فكذلك هوشأن القصة النبيلة فشأنها شأن ذاك !

* * *

وقصتنا العربية « هذه » انما هي نبتة فياحة مما تفيته وديان « ام القرى » . قصة رائعة ممتعة فهي

سارة مبكية في آن واحد ؟!!

يحفظ بدو الجزيرة اصلها وفروعهـا خيرها وشرها يتغنون بها و يطر بون لما قيل فيها من « قصيد » كما تغنى الحداة — قبل اليوم — بغزل كثير عزة ، وجميل بثينة وعمر بن ابي ربيعة ، وحجازيات الشريف الرضي ، وخمريات ابي نؤاس ، وما الى هؤلاء من شعراء وعشاق معاميد .

وليس من الغريب ان يحرص العربي على تراثه ومجده ووفائه فانه لقمينٌ بذلك فما يجري الا على سنن نجاره وطيب عروقه ومسالك اسلافه ، فهو يحمي الجار ويكرم الضيف و يفي بالذمم و يقيم على العهد فلا يخيس بميثاق ولا ينهد الى غدر جرياً على آثار من تقدمه من سلف صالح كريم ، الا طابت الجزيرة وطاب عربها وطاب وفاؤها ومجدها الخالد وطاب حديثها الرائق البهيج ...

محمد المهادي :

والمهادي هذا رئيس قبائل شمر المعروفة وكانت مضاربه في بادية جبل « حايل » انه في العقد الثالث من العمر جميل

الطلعة نبيل المحتد يجمع الى شمائل الرئاسة المتوفرة فيـه شجاعة وكرماً مأثورين ، و « حسبك من القلادة ما دار بالعنق » كان يتمتع بشهرة بعيدة الصيت عريضة الآفق بيته رفيـع عماده وموقده غزير رماده موصوف معروف ومقصود محمود ، واذا قلت « المهادي » عرف الناس من تعني ومن تريد ، فهو كالجران (قيل إبنة العنب اكتنفت) كسته الطبيعة جمال البادية فهو مسرح العيون ووهبته منطقاً وعبقرية ، فهو ملحوظ محظوظ .

وركب المهادي يوماً ناقته الذلول لبعض شؤونه في البادية حتى اذا آذنت الشمس بالمغيب فكر فى المبيت ليلته هذه فى بعض الأحياء القريبة منه ، وعند ذاك لاح له بيت من الشعر ينتصب على ثلاثة اعمدة معتز على ربوة مشرفة على سهل منبسط تتناوح عليه النسائم العليلات منقلة بطيب الزهر الفياح فى ذلك الأصيل الندي الروي ، وان اصـائل البوادي فى الربيع الممرع موشحة بهذه الهبات الآلهية بل هي بعض نعم الله على عبـاده ومخـلوقاته ، فانبسط « المهادى » الى الأستراحة ليلته هذه فى هـذا البيت وعلى هذه الربوة المشرفة والتى كأنها الفرس الطموح رافعاً رأسه فى خيلاء واعتداد .

فعرج على الخبـاء المطنب ، وعند بابه اناخ راحلتـه واعقلها ودخل « الربعة » المهيأة للضيف ، فلم يجـد رب البيت ؛ و بعد لحظات من استقراره بمجلسه طلعت عليـه من « المحرم ، قسم البيت الثـاني » فتاة جيداء تهادى فى مشيتها كالعروس و هي عروس ، بل هي كالريم الآمن تنفث السحر من عينين دعجاوين ، هما هـاروت وماروت البادية ! وتتلاعب على صدرها واوراكها جدائل مخضبة فتانة ، وقفت عليه تحيته ، ثم رمت اليه بكيس فيه « طحين القهوة » ولديه ابريقها وكـؤوسهـا وقالت معتذرة اليه ، ان صاحب الخبـاء لم يزل فى ميدان لهوه وصيده وعساه ان يعود قريباً ،

تلك عادة الاعراب فى البوادي ، فاذا نزل ضيف فى بيت لا رجل فيه فأن الضيف هو الذي يتولى بنفسه صنع القهوة حتى يحضر الرجال

وعادت الفتاة الى خدرهـا لتقوم بما عليها من شأن

* * *

غير أن المهادي قد علق الفتاة فأسرت لبه ، وانتهبت حجاه الوساوس واستولت عليه رعشة الوجد ... اعتراه ما يعترى العاشق الولهان اذا اصماه الحب بسهمه الفتاك

فلعبت الصبابة في قلبه وهام لمنظر الفتاة وكأن (المهيار)
قد عناه ببيته البديع :

رنا النظرة الأولى فقلت مجرب

وكررها اخرى فأحسست بالشر

احس صاحبنا بوجده واضطراب قلبه بهذه التي
تسبي العقول بحديثها المعسول وقدها المشوق وبغامها
الآسر القاهر ...

ظل مبهوتاً لا يحير جواباً ! وانما يطلب مزيداً من
كلامها وتغريد نبراتها كأن الفاظها حركات اوتاروَرنات
مزمار ...!

وسعدى ، هذه ، هذه صفاتها وشمائلها فهي فتانة
اخاذة ، من اللواتي الذي يود جليسهن « اذا ما انقضت
احدوثة لو تعيدها ! »

وادركت في نظرات الرجل مالا تقوى على احتماله ولها
من خفرها وشرفها سلطان على نفسها فهي المنيعة في
خدرها ومقامها وما عسى ان تنال منها نظرات رجل !
والفتاة ينظرها ويخاطبها الرجال وليس في ذلك بأس عند
الأعراب في عهدهم البعيد ويومهم القريب

***

و يثوب المهادى الى رشده وصوابه ، فيقبل على نفسه يعنفها و يوسعهـا زجراً ولعنـاً على هذه النظرة البغضية والعثرة الخلقية الهادمة لشرف الرئيس ، وهـو الرئيس الممدوح ذو العقل الراجح والسمعة العاطرة والحـديث الذى يستمتع به السمار من بدو حائل الى بدو العراق ولـكن شيطان المهادى كان حاضراً فى ساعته تلك ! يحرضه على الوثوب الى الفتاة على حين غرة منها وهي وحيدة ولا من يدفع عنها !!

ولقد هم بها ... ولـكـنه لا يقدم على الأثم ، فيعض على شفته حنقاً و غيظـاً و يدفع بيديه معـاً شبح هذه الوساوس الخبيثـة و « جيف » ؟ وانى له ان يقـدم على منـكر يورثه سخط العرب وجفاء الخلطاء وهو ان القبيلة وهو الذي لم تلمع عيناه على غرة جارة ولا عرف بسمـاة فيها ذم اوسوء ، وعدا هذا وذاك فأن له زوجة هي زينة الحي وله ولد وسمعة و صيت ...

في مثل هذا العراك ظل المهادي يجاهد النفس وشيطانها فما ذا تقول العرب اذا ساير نفسه الامارة بالسوء ؟ وهل غير الخزى والشنار ! لا ، لا ، انه المهادى الرئيس الشريف و كـفى ...

كان كالفارس فى حومة الوغى يكر على نفسه فيقدعها و يدفع بها عما توحي به اليه ، ثم ينتصب امامه الشيطان عارضاً عليه الفتاة وهي تتأطر فى مشيتها كغصن يداعبه نسيم فاتر فتثور افاعي الهيا م فى صـدره و يريد ان ينهض ليبل صـداه من ر يقها العـذ ب الجنى ! ولكنه يستمسك بعهاد عفا فه و يضر ب الهواء بكلتا يديه ويذكر الله و ينسى الشيطان ، فيو قد النارو يغلي قهوته و يحتسي من كؤوسها حلالاً طيباً

* * *

وعند اول الليل ؛ ينحدر اليه من مخرم الهضبة فتى بهي الطلعة على فرس اشقر يخب بفارسه وهو مرح مختال كأنه النسر ينقض الى وكره وعلى يده اليمنى « بازالصيد » يطر به فى رجزه وقصيده لبصره بصيد الطير والو حوش وقد احتقب على « مما طه » ما رزقه الله من صيـد احله له ، وعند ذاك خرجت اليه الفتاة تستقبله وتحييه وحملت طعام العشاء من هـذه اللحوم الطر ية وراحت تنضجها على النـا ر

وراح الشـاب الى ضيفه مسلماً مرحباً وكلاهما يجهل صاحبه ... واسترسل الشاب يحـدث ضيفه الـكر يم عما

عاناه في المطـاردة والقنص ويصف له براعـة « صقره »
وقسوته وضراوته في مهاجمة اسراب الطير والوحش وانه
كيت وكيت ...

وكان المهادي في واد غير وادي صاحبه ومحدثه !
فهو جريح الفؤاد مسلوب اللب طائر الفكر ؛ يعاني مثل
ما تعانيه هذه الطيور الذبيحة في ميدان وجده ونافر
رشده ، فهو غائب حاضر و يقظان ولـكنه كالحالم الساهم
يحييه رجوعه الى عقله وحصاته و يميته من الفتاة شبح
ماثل بين عينيه و لم يفطن الشاب الى الذي يساور الرجل
الى الذي يدور في خلد الضيف بل كان في غفلة و نبوة
فلم يفطن ولم يفكر طويلا واعزا ما يشاهده من
عزوف وحيرة الى العناء الذي يلحق المسافر في هذه البادية
المحرقة في ساعات نهارها ، فقد تلفحه الريح السموم
وقد ينزل به الكلال وقد يطوى على جوع وقد ...

قام الشاب وهو (ذيب آل عنه) العنزي فأحضر العشاء ؛
ادناه من ضيفه وقال بسم الله . تقدم وكل
و « ما فذ من جراك طالبينه من الخاك »

وهذه احدى عادات البدو العرب ؛ ما اجلها واسماها

من عادة ، فأن صاحب الضيافة عند احضاره الطعام يتقدم
بهذه الجملة توطئة لعذره وقصور باعه عن تقديم مايستحق
الضيف من وفادة واكرام ، فهو يقول : ان ما قـل من
« قراك » عندنا فنحن نطلبه منك ، اي انت اهل لان
تسد هذا النقص في ضيافتك العظيمة والتى لها شـأنها
وقيمتها .. ولكن ليس بالمهادي حاجة الى طعام اوشراب
وطعامه الذي يريد انما هو قبلة علوية من التى سلبتـه
سداده واعتداده وما شرابه الاجرعة من رحيق ثغرها
البرود ، فهذا الذي يريده من القرى والضيافة وبهـذا
يبرد غليله الساعر ووله المقيم ، اما الشواء واللحم النضيج
وقعب الحليب فذاك ما لا يريد !

وانتظر الشاب ، وانتظر كـثيراً والرجل لا يقترب من
طبق الطعام بل هو يبتعد وينأى كالذي به مس من
الجنون وانه لمجنون حقاً في ساعاته تلك ولاقرى الاالفتاة !

عار كبير عند العرب بل هـو وخيم العواقب عندهم
اذا تجافى الضيف عن الطعام المقدم اليـه اذا امتنع عن
الأكل ، فهو اما طالب حاجة فتقضى له واما خائف فيحمى
ويصان ، هذا هو الخلـق العربي الكريم فى الضيافـة
والوفادة فهي بعض مكارمهم وشيمهم ولله هم ...

فطن الشاب صاحب الفتاة الى ان ضيفه مصاب بأحدى الخلتين ؛ الحاجة او الخوف ، وتقدم اليه ، بأن يأكل وما فى قلبه من حاجة فانها مقضية و له بذلك عهد وذمة ، فقال المهادي « الفتاة اولا والطعام ثانياً ! » ولست بذائق طعاماً لك ما لم انل بغيتى و هي فتاة هذا البيت !!

— تقدم وكل ولك الفتاة منذ ليلتنا هذه و لا ضير عليك والله مع الذين يوفون بالعهد وانه لو لي المؤمنين .

فرغا من الطعام وعاد الشاب يحمل بقاياه الى البيت والبنت زوجته وحبيبته ، هي الدنيا بأسرها له وهو الدنيا بأسرها لها ، ولكنه قال « نعم » وليس لكلمة «لا» موضع بعد « نعمه » وسماحه بها هدية باردة سائغة .

قال : يا ابنة عم . حم القضاء ونزل الامر ، وقد امسيت منذ الآن اختي ؛ فأنت محرمة علي وانا حرام عليك وانت للضيف وما من معدى عن هذا فلقد وعدت ولقد وفيت وانا لله ...

صاحت الفتاة وولولت واجهشت وذرفت الدمع ولطمت خديها ، وهي تصيح « الموت الموت ، ولا حياة لي بفراقك »

قال هذا الذي حصل وكان والأمر اليك و اليه ، اما انا فقد تخليت عن دنياى وسعادتي وموطن هواي واذا كان في طوقك ان تقنعي الرجل فيقلع فذاك والا فالبين بيني و بينك ولا مرد لحكم الله ! فتعلقت به وتعلق بها « اخذ الغريم بفضل ثوب المعسر » !

و بكيا ما شاء لهما البكاء لهذه المصيبة ولهذه الكارثة التى هي وحيدة دهرها و بكر زمنها ...

* * *

لجمعت الفتاة اطرافها واقبلت تمشي على فيض من دموعها السخينة ، غاضت بهجتها وصوح الخطب ورد وجنتيها وارعشها وافقدها الصواب ، وكيف لا ؟!

دخلت على الضيف بهذا الحال المشجي ودموعها شواهد لوعتها وعلتها فوقفت بين يديه انهدام البيت اذا قصم عموده في نشيج ونحيب ، تلقاها المهادي بمعسول الكلام والوعد بالنعيم والحياة المشرقة في حيه وعند مضاربه ، وراح يقصّ عليها من هو وما شأنه ، فأنه المهادي ، الرئيس ، الرجل الشجاع ، سيد قبيلته وزعيم الحي وحبيب الفتيات وعشيق الحسان الملاح ، اذن فما خطبك ايتها الفتاة ، الست انا المهادي ؟ الم تسمعي

بي و بكرمي و بيتي وقبيلتي ؟؟....

انا فارس الخيل والليل ، والمال والرجال

انا المهادي ، هوني عليك ، يا فتاتي فستصبحين اميرة المضرب وسيدة الحي انا وانا ....

قالت الفتاة ، ياهذا الرجل ، ماذا تقول ، انك لاتعلم داخلة هذا الذي اقدمت عليه ! فاني لافضل المو ت على فراق ابن عمي وزوجي ، انا عروسه الحبيبة وهو حبيبي واذا حتم القضاء فراق من احبه وافديه بروحي فدع سيفك يقطع هذا الوريد ، وريدي الذي لا يريد بابن عمه بديلا وعوضاً ولو زلزلت الارض وتدكدكت الجبال ومطرت السماء ناراً وسعيراً .... انا عروسه و لم يمض على زواجنا شهر واحد بعد !

وما سمع المهادي صيحة الفتاة وصرختها وجلية امرها حتى صعق و ماد به مجلسه واظلم بصره وارتعدت فرائصه من هذا الجرم الذي ارتكبه في هذه الخطيئة العظمى فاسترجع وصاح : « ياللعار والخزي العظيم ، انه زوجك وانه ابن عمك ؟ اذن لا والله ، فلقد كنت احسبه اخاك او اباك ، انها لصدمة عنيفة صدمت بها بيتكم الجديد وعرسكم الغض واني لآسف نادم واستغفر الله مما حدا

بي شيطان النفس واخرجني من طوري حتى طعنتكم في صميم هنائكم وطيب لقياكم ، و خاطب نفسه موبخاً زاجراً ، « هيه يا المهادي يا للعار ... »

وانت ايتها الفتاة النبيلة ادرجي الى عشك آمنة مطمئنة فانك لحرام علي ، انت اخت لي منذ لحظتي هذه والله شهيد على ما اقول

* * *

ونادى المهادي زوجها وهو يذوب حسرات و يرتعد للذي صنعت يداه من اغراء النفس وعمل الشيطان فاستغفر للزوج واناب واعتذر واطال الاعتذار ، ثم انتسب لهما وقال انا اخ لكما صليبة وارحل الآن من بينكما السمح الكريم وارجو من الله ان يكون لنا لقاء واذا حدث لكما في هذا الدهر ما يحدث في الدنيا فاني مدين بدين الوفاء وهي ذمة في عنقي لا ينزعها الا غاسلي، فانعما في عيشكما الباسم والله حسبي وكفى ،

ووثب الى ناقته فاطلقها من عقالها وراحت تجد بسيرها الحثيث

* * *

عاد الطائران الى عشهما الجديد وهما جذلان ناعمان

بكفاف العيش والوصال العذب والأيام تمر والسعادة ترفرف عليهما بظلها الوارف المستديم يرتشفان كؤوس الوصال مترعة هنيئة ، زمناً رغداً ولقاء ونعيماً

ولكن ...

وخلائق الدنيا خلائق مومس
للمنع آونة وللأعطاء
طوراً تبادلك الصفاء وتارة
تلقاك تنكرها من البغضاء

* * *

هذه الحياة الخداعة الماكرة وجهان ، ابيض واسود هما كليلها ونهارها فهي ابداً مقبلة مدبرة مضحكة مبكية طوت الأيام نهار هذه العائلة السعيدة الرافلة بالعيش الرخي الرضى طوت يومها وافرغت عليها جلبابها الأسود فاذاقتها الوبال والنكال فتبدل العيش الناعم بالجشب والسعادة بالشقاء والكثرة با لقلة فنقصت من اطرافها و تقلص رواقها وحل بها الحرب وبأبلها و شائها الجرب وذاك طاعون فتاك وداء عضال ، فافتقر البيت وادقع اهله و صوح النبت فانهد صرحها و غاض مرحها واذا بالزوج و زوجه وطفلهما الرضيع يبيتون ليلة ولا

قوت ولا قعب من لبن !...

وتسري حكايته في حيه وبين ذويه فيجمعون له ماوسعهم الحال من ناقة ونعجات اقالة له من كبوة الزمن وسوء المصير ، ولكن النحس لازم ظلهم ؛ وكانت عدوى الجرب تسري الى كل ناغية وراغية تهدى اليه والعدوى تهلك وتبيد ثم تلحف في هذه المطاردة و الجفاء لحالتهم تزداد شؤماً و بؤساً حتى عيل صبرهم واستطابوا الموت ، لوان الموت يجيب سائلا! ولقد كاد الفقر ان يكون كفراً ...

و بعد لاي ؛ و بعد تفكير محزن ، هو تفكير من ضاق ذرعاً بالحياة و العيش الكفاف؛ قررا رحيلاً من هذه البقعة التي انقلبت من خصب الى جدب ومن رخاء الى عناء و فناء

الرحيل ، الرحيل الى المهادي ؛ مطمح ابصارهم وماجأهم الاخير

الرحيل الى رئيس شمر الغنى الثري ؛ ولكل اجل كتاب ..

* * *

اشرقت شمس اليوم الثاني على السهول والوديان وجمل هزيل هو كالجدار المتداعي القديم يريد ان ينقض

على ام رأسه يتقلع في مشيته و ينوء في حمله عليه الفتى
والفتاة والطفل ، كأنهم اشباح على شبح ؛ كلهم هزيل
شاحب اللون ؛ قاسوا الامرين من جوع وعرى ؛ في
سفرة ناصبة الى امل مجهول وغاية مبهمة وظل البعير ينوء
وينوء حتى اشرفوا على مضارب شمر فاستشرفوا بيت
الرئيس المهادي على اعمدة سبعة عامر الجناب ضاحك الارجاء
فأناخوا بعيرهم ببابه والاعياء يكاد يجذبهم جذباً الى
الارض

والمهادي ينظر الى البعير وهو يهوى الى مناخه
هوياً وعليه هذه الاشباح الثلاثة لوحهم الزمن وخل
بهم المكروه ، واذا بصاحبه و « خويه » العريس
الذى بذل له الفتاة وهي زوجة له وهما لا يزالان في شهرهما
الاول ؛ فيثب مسرعاً مستقبلا فاتحاً باعه وقلبه ؛ فيضمه
و يقبله و يدني مجلسه منه على « شداده » البدوى كفعله
بالرؤساء والمشايخ الذين يغشون محفله وناديه و يعلن
قومه ان هذا اخوه وحبيبه واعز من في الدنيا عليه
فيبالغ و يبالغ في التكريم والتعظيم
« ها « القهوة يا عبد »
و يقبل على ضيفه يسأل و يلحف في السؤال ويصغى

الى الجواب ويحمد الساعة الميمونة التي اسنقدمته عليه فأتاحت له فرصة اسداء الجميل لصاحب الجميل

ويأمر المهادى زوجته بأن تنتقل من بيتها ، وبيتها بيته وأن تتركه بما فيه من اثاث ورياش الى الضيف العزيز ينزل به هو وزوجه وولده الطفل

وتنتقل زوجة المهادى الى بيت آخر وتدخل سعدى البائسة منزلا حافلا غنياً ، بيتاً ليس لها بمثله عهد فجذلت واطمأنت وفرحت بما ودعت من بؤس وشقاء وما استقبلت من نعيم شامل وعيش ممرع جم الخير وافر النعيم

وبعداً لطائر النحس ، فقد بعدوا عنه وخلفوه ناعباً في ربعهم الذي تركوه خاوياً خالياً ، ولا رجعة اليه بعد اليوم ...

* * *

ويظل المهادي يسمر مع ضيفه الحبيب وقد تفرق رجال الحي بعد أن تناولوا عشاءهم على شرف هذا الضيف « ذيب » المبجل المكرم في بيت الرئيس المضياف

وتنام المرأة في دار الرئاسة وفي حجرها طفلها ويظل زوجها فى سمره مع المهادي ساعات ممتعات

* * *

وليس للمهادي الا ولد واحد غض الأهاب بلغ اشده او كاد ، هو وحيد ابويه وفريد قبيلته شمر وربيب نعمة ودلال مولع بالصيد ومطاردة الوحش في الفلوات ، وابوه يرخي له عنان مرحه ليشب فارساً جواداً مقداماً

فهو ابداً حلس جواده وخدين طيوره المضراة روضها على الكر والفر فهي كل رفقته في غدوه ورواحه وانه ليغيب في الوديان وشعاب الكهوف فيقضي اليوم واليومين واذا عاد ، عاد موقراً بعيره الفاره بلحوم صيده من طير ووحش ، ذاك دأبه وهجيراه ..

* * *

ويشاء القدر ... ان يعكر صفواً عمره بضع ساعات من يومهم ذاك !

يشاء القدر ان يريق سمه القتال في كأس هذا المساء المترع بالمسرات والحبور وما اشد غفلة الانسان فأنه اذا اطمأن واستمتع فأن المنايا بمرصد منه ! واذا ضحك وطابت نفسه بالحياة فأن القدر ليسخر من غفلته وجهله وعند صفو الليالي يحدث الكدر ...!

واذا اقبلت الدنيا على انسان نخلعت عليه ثوب عرس قشيب فأنها تجهز لآخر كفناً وحنوطاً !! في مقبلة

مدبرة ابد الدهر ... تبدئ وتعيد ، ثم تعيد وتبدأ تستأنف عملها معاكسة ولا جد بد تحت الشمس ..

يتشعب السمر بالأخرين المتلاقيين و يستطيل بغبطة واطمئنان وجذل ، ولكن القدر فى ساعتهما تلك ينسج خيوط كفن لضحية بريئة !...

و يهم الرجل الضيف بالقيام لينام ، ولكن المهادي يستبقيه و يستبقيه متلذذاً بذكريات مشجية محزنة ، بذكريات نزوله فى بيته وخروج « سعدى » اليه وما راعه من امرها اذتيمته واقصدت فؤاده بسهام عينيها

وكيف ان « ذيباً » هذا الضيف العظيم ، تخلى له عنها وهي زوجته وحبيبته بل هما روحان حلا جسداً واحداً ؛ ولكن نفسه العربية وفت بعهدها ودفعت به الى كرم و سخاء هو بيضة الدهر و بكر التاريخ

على هذا ونحوه يستكشف المهادي ذكريات يومه البعيد ؛ ندماً وخجلاً على مافرط منه ، وارتياحاً لما واتاه الزمن من فرصة سعيدة يسدد بها حساباً طويلاً كان ديناً عليه لصاحبة هذا النازل فى ذراه منذ اليوم

انطوى شطر من الليل وتفرق القوم الى منامهم والرجلان المهادي و ذيب يعبان من نشوة اللقاء والحديث

والسمر المواتي بعد هجر طويل ..

ويستغرق الرجلان في هذا الوصال المحمود ويستغرق القدر في احكام أسد يد ضربته ليصيب مقتلا من هدفه الذي يريد واذا سدد القدر رميته فأنها في قلب الغرض ، وهو الذي لا تطيش سهامه ولا تخطئ احكامه !

هكذا كان القضاء في هذه الليلة النائمة الصافية كان يقظاناً راصداً ليتم امراً كان مقضياً !..

***

الرجلان في سمرهما ودعتهما آمنان ناعمان لا ينتظران مكروهاً ولا يحفلان بما ينسج القدر في ذلك الخفاء المدلهم وانهما لكذلك ، اذ يعود الفارس الصغير (غلام المهادي الموصوف) فيطرق حيه والناس نيام وليس من نأمة الا نسيم العشي يداعب الأطناب واروقة البيوت ، والا نبيح كلاب تطرد به خراب البادية ولصوص الوديان ..»

يعود « الشاب » ابن المهادي من يوم لهوه وطرده متعباً نصباً ، فيدلف مسرعاً الى « بيت امه » كعادته فيما سلف وكشأنه في الأيام الفارطة ولكن ، البيت الذي ولجه الآن ليس بيت امه وابيه ، وهذه المرأة التى تغط

فى نومها ليست والدته وانما هي ضيف غريب ؟! والغلام الشاب غافل لايدرى بشبكة القضاء وحبالة القدر المنصوبة له !.. وعلم الغيب من صفات الله وهو الذي يدبر الأمور

يدلف ابن المهادي الى بيتـه و يلقي بنفسه على فراش فيه ! ولـكن فراشه هذا قد هيء لغيره ، اعـده ابوه لضيفيه الجديدين والشاب لا علم له بالخفايا ، وللغيب حكمة هي نافذة ابداً !

و يسبح الشاب الفتى بأحلامه ناعماً بثروة ما اصطاد فى نهاره الماضي ، هانئـاً بنعيم نومه فى ليله ، آملاً ربحاً وصيداً في غده !!

* *
*

وانتشى الرجلان من خمرة سمر طالت ساعاته وقـد انتصف الليل ولم يبق الا ان يستريحا بقية ليلتهما وقـد نامت عيون الحـي حتى يستأنفا صباحاً قريباً ، يستأنفان معه حبور اللقاء وطيب الوصال ..،

انسل الرجلان كل منهما الى مخدعه وفراشه ويدخل ذيب الى بيت زوجته وهو ـ بيت المهادي وزوجه الى قبيل ساعات معدودات ؛ ولـكنه منزله وحريمـه المنيـع الآن فماذا يجد ؟! يا للهول ؟!

اغدراً ؟ أيها المهادي ؟؟ بزوجي واهلي ؟ ياللويل
هذا غلام تغطى وجهه لمناه المنشورتان على عارضيـه انه
شاب نائم الى جنب زوجه ؟..

« اخسأ ياولد الباطل » آه ..

وثارت فى الرجل حفيظتـه واقشعر بدنه على شرفـه
المهان وعرضه المباح فى منزل المهادي فينسى كل شيء الا
غيرته العربية والاشرفه وعفاف اهله ،

ينسى كل شيء الاخوته المتقدة ، والاحسامـه الذى
يتقلده ، وحسامه طوع يمينه ؟؟

جرد السيف واهوى به على رأس الشاب النائم الحالم
ففصله عن جسمه ؟؟ وتوثبت رجلاه تضطربان على فراش
البيت وطار وشاش الدماء يخضب الثياب والاديم ؟

وفزعت المرأة وجلست ذاهلة ، ماذا ترى ؟ والرجل
يشير اليها الاتنبس بحرف والا الحقها به ، ثم يخرج مجلحاً
يذب وثباً خروج الاسد من عرينه ؛ وينادي المهادى
وسيفه بيمينه يعج نجيـع الضحية البريئة المنكـوبة ،
ويرجع المهادى عجلا قلقاً فيعرف الخطب الجلل والنكبة
السادرة ، وذيب يرعدبوجهه ويقول (جيف ، ياالمهادى)
وكيف ؟...

و يروح المهادي ، يشرح (لذيب) الغلطة الدامية التي سببت هذه النكبة ، و يقول ان عرضك لمصون منيع ولا غبار عليه ، بل لا يمس بسوء و لن يمسه احد بضير وان القتيل البرىء انما هو ابني ووحيدى ، وحكايته كيت وكيت ، ولكن امر الله قد نفذ فيه ؟ وقد سبق السيف العذل ، ولا بأس عليك ياضيفنا الكريم ، وولدى القتيل « ذبيحة ضيافتك الغالية » ، فقر عيناً وطب نفساً وتعال معي ندفن القربان ونكتم امره بل نقتل خبره كقتلك اياه ؟ و يسكن روع ذيب صاكاً وجهه ندماً وحسرات ولات ساعة مندم ؟؟

***

ثم يواريان الجثة وراسها فى ربوة نائية ويتعاون سواد الليل مع الرجلين على اخفاء ما يريد المهادى اخفاءه ...

***

كل مالم يكن من الصعب في الانفس سهل فيها اذا هو كانا

***

وتطلع ذكاء من يومها الثاني ، والمهادى و صاحبه على مجلسهما امس ؟! وهما هما فى حوارهما الأخوي وحبورهما الصميم

و يأمر الرئيس الشمري رجاله وعبيده ببناء بيت مطنب يليق بضيفه واخيه « ذياب » و يهدى اليه رعيتين من الابل اناثاً وذكوراً ، الاناث للنتاج والنماء والذكور للحمل و « المكاراة » وقطيعاً من الغنم وما تحتاج اليه هذه الهبة الجسيمة من رعاة وحراس لان « كصيره » وصاحبه هذا اهل للرفد والاكرام والمشاطرة بالمال ...

* *
*

والمهادي في ناديه ومجلسه كعادته في سائر ايامه واذا مر بحيه راكب اوركب فأنه يسألهم عن ولده .. هل لاح لهم في اضطرابهم بالبادية ومسيرهم بالليل غلام صفته كذا وكذا ؟؟ لعلهم قد رأوه عند غدير ؟ اوروضة معشبة معه اداة صيده يختل بها الصيد من وحش وطير ...

وجواب الركبان ؛ لا ..

ويذهب رواد من شمر يجوبون خلال الشعاب والوديان والكهوف و يعودون من بحثهم عن الغلام صفر الاكف والحزن يملأ الجوانح و يثير الاحزان وان من يبحثون عنه قد اصبح عظماً رميما ..!

والايام تمر وتنطوى والمهادى يسأل و يسأل ، حتى اذا يئس ، و يئس الحي والرائدون ، استرجع وقال انه

ضيفنا ذيباً وهو اخونا عوض عن ولدنا ، وبالله المستعان

* * *

وتمر الليالي عجالا سراعاً وتنطوي الشهور والسنون خبباً وعنقاً ؛

والمهادي وذيب اخوان متصلان لا يفترقان ، وسميران لا يتزايلان ، اذا علا النهار وانفض الندى خلياً الى اللهو البرئ الى اللعب الذي يقطع السآم ينفقان ساعة اوساعتين في لعبة بدوية ، (هي اللبية) واللبية لعبة المنقلة المعروفة في مقاهي المدن وهي لوحة مستطيلة محفورة فيها صفان متقابلان من الحفر في كل صف ست حفر واللعب فيها بالودع الأبيض ، والبدو يلعبونها بالحصى وقد انقرضت الان اوكادت ، وكانت لعبة مسلية ، وهي كل مالدى الصديقين المتصافيين من بهجة وامتاع ..

* * *

وتمر سنوات تتلوها سنوات اخرى والرجلان على حالهما صفاء وولاء فالزمن خصيب والعيش رخي ميسور درت عليهما خلال ذلك اخلاف الرزق ومنحهما الله مالا وثروة ، فهما مغبوطان محسودان ؛

وعلى هذا الحال المسر وفى هذه النعمة النامية سلخ

الرحلان نحواً من عشرين عاماً ، شب خلالها ماعندهما من بنين ، للمهادي بنت واحده فقط ؛ فهي ابنة المهادى وكفى ، وشاء الله الا تلد زوجه بعد ولده القتيل الاهذه الطفلة المترعرعه ، وكان لصاحبه وضيفه ذيب ثلاثة اولاد ؛ شبوا بين احضان هذا النعيم المغبوط يغدون ويروحون بأبائهم يرفلون فى بحبوحة من العيش ، اولاد ثلاثة هم اولاد الضيف ، وبنت واحدة هي بنت الذي آواهم فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف

***

وللبدو فى شؤونهم ومنازلهم عادات ، يختلفون فى بعضها ويتفقون فى بعض منها .

فبعض القبائل البدوية يسمح للفتاة البكر ان تنطلق بأبلها سارحة راعية مع الرعيان حتى اذا تزوجت منعت وحجبت وهذه عادة متبعة عند قسم من قبائل شمر وهناك قبائل اخرى من البدو لاترى فى رعى الفتاة غناء فهي تمنع خروج البنت وتقصر ذلك على الشبان والفتيان ..

***

وكانت ابنة المهادي ، وهي خلف اخيها الضائع

و . بيه دار الرئاسة ونهـايه سلالة هـذا البيت الرفيـع كانت -زيزة الحي واسمها ومرحهـا ولعبها على فرسها فى المراعي حديث الرجال والنساء لانها ابنة الشيخ وعزيزة الديوان وانها لتسرح مع الرعيان ، اولاد الضيف واولادو بنات الأعمام

*
* *

وجاء دور الشيطان ، ليلعب فى هذا الميدان الفسيح لعبته ومكره ! فوسوس لاحد الأولاد اولاد الضيف ان يخادن وان يلاحق هذه الفتاة التى بدأت تتفتح للدنيا كالزهرة التى انشق عنها برعومها وفاح عبيرها فهي فتنة ومتعة جنية قدحان اقتطاف ثمرتها الشهية اليانعة ! ...

*
* *

والايام تمروتكر ، حتى انطوى زمن وزمن والوليد اوقح يطارد الوليدة المحسنة يطلب اليها ان يردفها على بعيره او تردفه على ناقتها ولكنها تنفرو تنفر ويمنعها خفرها وحياؤها من ان تبوح او تشكو ؛

و يسرف الوحش الوليد بالربرب الشاذ ، يسرف فى الملاحقة والمغازلة كلما خلا له الجو وابتعد عنه الرعاة وتسرف الفتاة فى كتمان امرها تأبياً وحياء ؛ وانها

لتجد عجباً من هـذا الوليد الـكـفور للنعمـة والجوار والأخاء ، أليست هي ابنة المهادي المهابة من افراد الحي نساء ورجالاً ؟ أليست هي التي اذا حاولت شيئاً وطابت غرضاً تسابق الرجال والنساء الى خـدمتهـا وتدارك ما اشارت اواومأت اليه ؟ اجـل انها لكـذلك مرعية الجناب محروسة من الاعمام والأخوال ؟

اذن فما بال هذا « الوغد » يحتقرها و يطلب اليها امراً لم يطلبه احـد سواه ! حتى من « اولاد اعمامها » الذين تسابقهم و يسابقونها و ترافقهم و يرافقونها ؟...

فماذا يريد هذا الوحش الخليع من ظبية البان !

انه يريد بها سوءاً و مكراً ! و بئس الوفاء هذا الوفاء بل ما اجحده من وليد لذلك التكريم والنعيم .

***

لم يقلع الراعي المستهتر عن الراعية الحيية فقد استطالت يده اليها ليلمس منهـا ثدياً او خـداً أو ضفيرة !! وهي تتجهم فى وجهـه وتنفر وتصيـح ، تعـلوها حمرة الحياء وصفرة الوجل فتبتعد عن شبح الجريمة ما وسعها الابتعاد والتخفى حتى ضاق بها الأمر ، واشتد بها ما تلقى من هذا الـكرب المطلخم والمصيبة المبهمة والمصير المخـوف

لم يكن حب الوليد الوقح لهذه الفتاة النبيلة « حباً عذرياً » خالصاً بريئاً ليعذر فى مطاردته ومجونه

لم يكن حبه عذرياً طاهراً ، ولوكان عذرياً خالصاً بريئاً لما خشيت عواقبه وحسبت له حسابه فالحب العذري سليم الضمائر نقى النوايا امات به عشاق و معشوقات كثيرون وهؤلاء وهؤلاء جميعاً لم يدنسوا شرف حبهم ووجدهم كما يريد هذا الوغد ان يدنس شرف الفتاة وشرف البيت الذي آمنهم من خوف واطعمهم من جوع ..

*
* *

ولما لم تجد الفتاة ملجأً يعصمها من هذا الشبح المطارد غير كهفها المنيع وحماها الامين فأنها اسرعت الى امها بعينين مثقلتين بدمع الطفولة الطاهرة فأفرغت فى اذنها جميع ما وعت وما سمعت من مطاردها الآثم لاتخرم حرفاً ولا تكتم شأناً وانما تبسطت فى سرد الحكاية حرفاً بحرف جرياً مع الطبيعة الساذجة والغرة البريئة

واجمت الام امرها وتأهبت لصون فتاتها ثم منعت ابنتها من الخروج للرعي مع الرعيان فمكثت الوليدة بين البيوت تلعب مع اترابها ولداتها ورأت الام ان فى تدبيرها هذا وقاية وحيلولة دون وقوع الشر فاطمأنت

ولم تتقدم الى زوجها بداخلة الامر ، حتى لاحظ (المهادي)
ان ابنته لم تغد مع الرعيان في رعي ابلها فلماذا ؟

فسأل امها السبب فأخبرته بمطاردة الوليد للوليدة
وانها منعت الفتاة من الخروج لئلا يقع مالا تحمد عقباه
ولئلا يتكدر صنيعهم الجميل الذي اسدوه لآل (عنه) الكرام
ومادام في الامكان اطفاء جذوة الزناد فأن الآمر قد يقف
عند حده هذا ويذهب المطارد لشأنه قالعاً عما يريد ...

ولذلك فأن المهادي اقر زوجته على رأيها في حجبها
الفتاة عن الخروج بأذوادها الى العشب والماء وحسب ان
حبل الشيطان سينقطع بالطائش الجهول

ودولاب الأيام يدور والايالي تعقبها الليالي ؛ والطائش
الجهول هو هو في فساد طويته وخبث محاولته لا ينفك
يتعقب الفتاة العذراء يترصدها في سبيلها الى الغدير اذا
ذهبت تستقي مع بنات الحي ، فهو لا ينفك يستفرص
الفرص فيأتيها على حين غرة ساذجة منها ويحاول (القبلة)
واللمسة والجذبة ولكن الظبية الحيية النفور تنفر وتنفر
تدفعه بالحسنى وتصوب اليه عينين ثائرتين حائرتين
ليقلع وليبتعد عما يحاول من استلاب عرضها وشرفها ..

ولكن اللص اذا كان فاسد القلب آمناً من

العقاب فانه لا يخشى الحارس ولا يقلع عما تساوره نفسه من اقدام على جريرة ما يريد ! واذا فسد الضمير تعطل الخير وسادت الشرور ...

لم ينته الوليد الفاجر من مشايعة وحي الشيطان كان الناكر للجميل والمعروف ولم تر الوليدة العفيفة ما يعصمها من هذا الشبح المرعب الذي يريد ان يكتسح عفافها ونبلها رغم امها فهي تستجير بها استجارة ضيوفها بأبيها !! وكلما زاد الطائش اغراء بها زادت هي به ضيقاً وعسراً ، والشر اذا انقدح زناده اورى ، واذا اورى التهب واذا التهب اشتعل واذا اشتعل دمر ، وتلك التي تصفر منها الانامل ...

* * *

ضاقت الفتاة ذرعاً بالفتى الناكر للوفادة والاحسان وضاقت ام الفتاة بالكرب المحيط بابنتها ثم بشرف البيت وكيان الرئاسة ، وكيانها محترم و بيتها بيت عز وشمم ...

ولكن ما وجه الحيلة ؟ وكيف الخلاص من محاولة الوليد الذي يريد ان يقذف بالفتاة الى عثرة لالعاً لها !

لقد استفحل الشر وقد ينفجر عن قالة سوء فيها خزي وعار

وام الفتاة تقف حائلا دون الذي تخشى عواقبه

وتدبر لفتاتها تصرفها في ذهابها ومجيئها ، تراقبها عن كثب وتراقب الوليد الغوي آملة ان يستيقظ ضميره فيندم ، لعله يثوب الى رشده بعد غي جارم ومطاردة آثمة ، و يطول الزمن على الفتى وكلما تقدمت به سنه تقدم به خبثه وعرامه فألقى حبله على غاربه منطلقاً مع هواه ونزغات نفسه الجحود

*
* *

انغلق وجه الحيلة اذن !

لقد طفحت الكأس ، واذا امتلأت فاضت وسيراها القريب و يشم ريحها البعيد ؛

* * *

جلس المهادي الى زوجته يتناجيان ، ويختطان خطة حكيمة تقيهما حلول الحدث الأكبر وتقي ضيوفهما من شر مبيد من صيحة شمر القبيلة الشديدة الشكيمة فانها اذا ثارت لعرضها وشرفها فان لها جهل السباع اذا هاجها من يريد باشبالها شراً وهواناً ...

اهتدى الزوجان الرئيسان الى حل المعضلة المستغلقة وباتا يرقبان الصباح لينفذا ما صمما عليه ...

* * *

انقض الندي من الصباح التالي ، وقام الصديقان الحميمان المهادي و ذيب الى حفرة « اللبية » التى يلعبانها منذ سنين

واذا كان المهادي فى لعبته امس ومنذ اعوام واعوام مضت اذا كان يفتتحها متندراً ضاحكاً عابثاً فانه اليوم غيره امس ، انه يضع خطة لخلاص ابنته من ابن الضيف انه يقيم الحد الفاصل بين شرفه المطارد المهان ؛ وشرفه في صون فتاته من السوء ... و بين الوليد الشاب الذي يسدد قوس فجوره ليطعن العفاف الشمري في الصميم !

اذا كان المهادي لاعباً فرحاً فى امسه ، فهو اليوم جاد مصمم ؛ فى امسه خمر وفى يومه امر ؛ كان فى امسه يرتجز شعراً و لكنه اليوم يقذف امراً ...!

جلس الصاحبان المتصافيان الى حفرة « اللبيـة » واخذ المهادي الحصى ، وكان رجزه الراجز عند لعبته هذه كلما رفع يده بالحصى وكلما قذفه بالحفر هو :

« ارحل والا رحلنا » !

« ارحل والا رحلنا » !

« ارحل والا رحلنا » !

يرتجز بهذا وصوته يعصر همه الدفين ثم ينظر الى

صاحبه فى يأس واسف ؛ ولـكن صاحبه كان غافلا !
اغفلته نعمة المهادى وطيب معاملته وطو يل عشرته وانه
« خو يه » فى هذه السنين الطوال

و يفطن المهادى الى ان صاحبه سادر فى واد من الغفلة
لا يعي امر الرئيس ولا يدرى سبب اللهجة !

ولـكن المهادى قد صمم وقد حتم فلا مناص من متابعة
منهج الخطـة ليتم الغرض و ينتهى التصميم ، فيلتفت الى
الضيف لينادى على زوجته تأتيهما بماء ! و ينادى الضيف
سعدى و تقبل وعلى يدها الماء ، والمهادى يتابع اوامره
على لعبته « ارحل والا رحلنا » وتسمع الزوجة مالاعهد
لها بسماعه من رئيس شمر ، ففي لهجة الزعيم اليوم صرامة
وامر !؟ انه يقول بعنف وتهديد «ارحل ، والا رحلنا !!»
والمخاطب زوجها ولا ثالث بينهما ! فما ذا اذن ؟ فان وراء
الاكمة ما وراءها ...

تعود المرأة وقد فطنت الى الذى لم يفطن اليه الزوج
امر صريح واشارة مكشوفة ، وأمر بالبين فماذا اذن ؟..

تنتهي اللعبة ؛ و يقوم المهـادى الى بيته ، و يقـوم
ذيب الى بيته

تتقدم سعدى الى ذيب تسأله ما بال المهادى اليوم

والرجل يجيبها [لاشيء !] وتقول له كلا وانك لفي غفلة — جيف — كيف ؟ قالت الم تسمع المهادي يخاطبك مرات ومرات « ارحل والا رحلنا ؟؟ » الا تدرك انه يريد أن نرحل عنه ....

و يفيق ذيب من خماره و يقول « هاه ، هاه عزالله انك لصادقة ، انك لصادقة فى الذى تزعمين »

فما الرأى .... وبماذا تشيرين ؟

قالت نرحل ، طوعاً لامر رب نعمتنا ومنقذنا ، قال اجل فالرحيل غداً حتما وسيظهر السر بعد حين ...

وعند الليل امر الرجل رعاته بأنهم غداً راحلون واذن فلا سرح ولا رعي بعد اليوم !

وقال الرعاة فيما بينهم (ان الشيوخ مقيمون فلم الرحيل)

أليس هذا الضيف ذيب « خوي المهادي » يرحل معه و ينزل معه ؟ فكيف يرحل منفرداً ! والشيوخ — المهادي وقومه — مقيمون ففيم الرحيل اذن !

***

وكم واثق بالدهر والدهر مولع
بتأليف شتى او بتفريق جامع

***

اشرقت الشمس ، والمهادي في ناديه وحوله وجـوه
الحي والعبد كـعادته يـدق قهوته في « هاونه الرنان »
والضيف يقوض عماده و يطوي بيته و يضع رحـله
على ابله المعقولة المحجوزة عن السرح اليوم

وفي النادي عيون ترمقه بوجوه صامتة ؛ والمهـادي
ينظر ولا يقول ... يتملل بالأحاديث و يصرف الوجوه
الى حديثه واشاراته حتى اذا انتهـى زم الرحال انطلقت
الأبل من مباركها وعليها عيـال ذيب واثقاله ورعاته ،
اقبل الرجل الراحل و بيده لجام فرسه ليودع اخاه المهادي

وثب المهادي الى ضيفه وثبته اليه منذ عشرين
سنة خلت ! وكانت تلك لاستقباله وانزاله وهذه لتوديعه
وارحاله ، وقال متسائلا « ما ذا ازمعت ياضيفنا العزيز؟»
ويجيبه الضيف « ان الغريب طلب بلاده ! وطال عمرك
يا ابن المجد والكرم » فرد المهادي (سهل الله علينا وعليك)

واحتمال الأذى ورؤية جانيه
غـذاء تضوى به الأجسام

***

سارت الشمس في كبد السماء في غداة رحيلهم من
مضارب المهادي ، كسيرها يوم وفدوا عليه منذ جيل من

الزمن حتى اذا ادركهم الليل نزلوا على بعض مياه العرب يستريحون و ينظرون شأنهم ومصيرهم ليزيلوا الغطاء عن الخبيء المجهول لئلا يكون امرهم غمة عليهم ...

خلا الرجل بزوجته ؛ يستفهم و يستوضح و يسأل ماذا ؟ احلم هذا الذى رأيناه ام يقظة ، وما خطبنا ياهذه افصحى ... واعلمينى بجلية الحدث الغامض ،اذكان لك علم

قالت المرأة عليك ببنيك ، فاستخرج ما فى ضمائرهم ان استطعت سبيلاً الى ما يكتمون فأن فى الأولاد فرحة وترحة ، وفيهم نعمه ونقمة

*

* *

انتهوا من عشائهم ، وظلوا واجمين مضطر بين وهذا الآب لا تستطيب نفسه طعاماً ولامناماً ؛ يريد كشف الستار ولعله هاتك الحجاب الكثيف الذي يغطى السر الذي اهاب بالمهادى الى طلب الرحيل منهم ، واذا عرف السبب وبان الكمين فشأنه غير شأنه بالأمس والا فالعيش نكد والبلاء ظل يلازمهم مدى الحياة ...

* * *

انتحى الرجل ناحية عن رحله واهله ورماته ونادى اكبر اولاده

.. فلان

ـ نعم ..؟

ـ اسمع يا بني

ـ اني سامع يا ابتي ، تفضل فاني عند امرك ونهيك ؛

ـ انت شاب وسيم وفي عنفوان شبابك وحرارة صباك ومثلك من يخادن الفتيات ويلاحق البنات ليقضي منهن وطراً وحاجة ، وانني يوم كنت في سنك واهابك كنت فارس الميدان اصاول واحاول فهصرت غصوناً غضة طرية وجرعت من الهوى جرعات عذاباً طيبات هي اليوم سلواي وعزائي في سني هذه !...

... وتلكم فتاة المهادي الهيفاء زبدة المخاض وخلاصة الجمال في الحي الشمري ! فهلا خادنتها وواصلتها واقتطفت ثمرتها اليانعة المتفتحة المنفوعة ؟...

ثم سكت ينتظر الجواب ، من ابنه الاول ، فانتفض الشاب النجيب النبيل ؛ « نافضاً جيبه » ناظراً الى ابيه بازورار وحنق ، كيف يا ابي الوقور اتجرأ فأرسل طرفي على فتاة عذراء ابوها سبب انقاذنا من نكبة الزمن وعوادي الدهر ، ان المهادي سيدنا والمحسن الينا اوليس من نكران الجميل خيانته في بنته وهي شرفه ووحيدة

نـله؟ ان شريعة الوفاء تقتضينا ان نذود عنه وعنها و نحمي ونحميها حاضراً كان او غائباً ..

واني لاعوذ بالله مما تقول ، يا للنكران ...

فصاح الرجل بولده : قم قبحك الله من شاب لايمت الى الرجولة بسبب فقام الفتى خجلاً دارجاً الى مناخ ابله يعجب من ابيه و يتعوذ من الشيطان

و ينادى الرجل على ابنه الوسط ، فيحاوره محاورة اخيه فيجده مثل شقيقه الكبير فيطرده طرد ذاك

*

* *

ثم يخلو ذيب الى ولده الصغير صـاباً في اذنه وصف الفتيات الملاح وملاحقتهن ولذاذاتهن سائلا ماذا عندك ياولدي الشاب من مغامرات وتشبيب في هذا الميدان الطلق الرحيب ولماذا لم تدرك مأرباً من ابنة المهادي وهي كنجمة الصباح و الزهر الفيـاح وكانت بمرأى ومسمع منك ، كيف افلت الظبي من شرك غرامك وانت ...

وهنا انتصب الوليد الفاجر الدني ، وقال : والله ياابتي « لولا انك اعجلتنا بالرحيل لـكنت ادركت بغيتي ومناي منها بعد قليل من الايام » ! ولكن الرجل لم يمهل ابنه يتم حديثه المجرم حتى كان السيف – وبمثل لمح البصر –

يعانق وريده فانفصل رأسه عن بدنه الخبيث يبحث الارض ودماؤه تصبغ الرمال مثلما صبغت دماء ابن المهادي اثاث الضيافة في بيت المجد والوفاء ..

وقام الرجل وهو يقول : انت « يا ابن كفران النعمة » خير طعام للضيف وارخص هدية نقدمها لمن انتشل اباك واهلك من وهدة الجوع والعري ، وذلك جزاء من يضمر السوء للمحسنين اليه ....

ولكم « في القصاص حياة »

« و ان القتل انفى للقتل » ...

***

ثم يدعو ذيب ولديه وزوجه ورعاته و يقص عليهم احداث زمنه الظلوم منذ اليوم الذي نزل به المهادي وما صار من شأنه معه حتى ساعته هذه

ثم يأخذ رأس ولده القتيل و يلفه في طمر بال ويدسه في « مزودة » ويرسل هذه الهدية الرخيصة الغالية بيد احد « الصلبة » الى محمد المهادي لتوضع بين يديه جزاء وفاقا ...

***

طلعت ذكاء من يومها الثاني وهي (تجري لمستقرلها)

والمهادى على شداده بين قومه شمر في النادى العامر يسمر ويسمرون ويتحدث ويتحدثون ، واذا بدوى يوضع ناقته حتى ينيخها بباب الديوان ، وينزل « الصامي » ساعياً ومسلماً على المهادى الرئيس وعلى شمر المحيطين بعميدهم ثم يضع بين يدى الرئيس (المزودة) ويقول انها هدية غالية رخيصة من ذيب آل عنه « ١ »

ويقول المهادى ، آه ، افتحوا « المزودة » يا شمر فان بها لشأنا من صديقنا و (خوينا) ذيب ،

فضوا المزودة وشمر كلهم عيون ترمق مطاوى المزودة ليروا ماذا ارسل ذيب العنزى الى المهادى الشمرى واذا برأس الغلام العنزى « ابن ذيب آل عنه » وهو ملطخ بدمائه

فارتاع القوم ! ووجموا وصاحوا ماهذا يا المهادى؟؟

فقال المهادى « رأس برأس » ولله صنيع ذيب العربي الحافظ للحق والوفاء والحكاية يا شمر هي كيت وكيت ولله درك ياضيفنا فلقد غسلت القلوب من أجة الاحن وبردت الغليل الطاوى على فقدان ولدى لضحية البريئة وانا لله وانا اليه راجعون ، ورحمه الله على الخاتمة الطيبة وان

---

(١) عنه بكسر العين وتشديد النون

فدأم لحـنين

* * *

وانتصب المهادي في مجلسه ـ على شداد الرئاسة ـ وارتجز قصيده المشهور ، الذي يحفظه البدو ويستشهدون به يصف فيه صبره على مكاره ولد الجار الضيف ، يصف ذلك بإسهاب ؛ ونحن نذكر ابياتاً من هذا « الگصيد » كما يسميه بدو البوادي ، فان فيه متعة وعرضاً لقصة سارة مشجية معاً ؛ ولغة القصيد وسط بين اللغة الفصحى والعامية وهي لغة البدو اليوم

وقصيد المهادي هذا طويل ، ونحن نجتزئ منه بالقليل بهذه الابيات المعدودة لطرافتها واشتمالها على الموضوع ، فقد قال المهادي رحمه الله :

* * *

« يگول المهادي والمهادي محمد
به علة جم الملا مادري بها »

« وجعي من علتي باطنية
باگصى الضمائر مادري وين بابها »

« تگد الحشا كد ولا تنثر الدما
ولا يدري الهلباج عن ماجا بها »

« ان ابديتها بادت لرمافة العلاى [illegible]
[illegible] وان اخفيتها ضاق الحشا بالتهابها »

***

« ثمانيـ[illegible] سنين وجلوا لمجرم ابنا[illegible]

رفأ كما ترفا العذارى ثيابها »

« وهو مثل واطي جمرة ما درى بها »

وهبت قصة المهادي مثلا رائعا حقا، تتناقلها الركبان وتطيب عليها السمر في الليالي وفوق الرحال [illegible] عن فيها من مثل عليا في حفظ حقوق الجار والمستجير ورعاية للذمم وحفظ الايادي وما الى ذلك من [illegible] الاحوال بالعفاف والمكارم العربية النبيلة ،

فقصة المهادي وصاحبه وحيدة في التاريخ ولعمري انها لكالتمثال المجسم من الوفاء وعرفان الجميل

***

ولما وقع الخصام في قبيـلة « العمارات المشهورة » بين فخذيها وهما الدهامشة وآل جبل وتهاجى شعراؤهـا فأن غانم اللميـم » وهو شاعر الدهامشة ـ والنزاع بينهم و بين آل جبل ـ فأن غانماً ارتجل قصيداً يقتضيه موقفهم يومذاك فذكر المهادي فيما ذكر ومما قاله :

ساهر بالليل ماجاني نوادي   من مظالم شيخ جراهن علينا
صبرناما يگدره (غير المهادي)   شايفن خملة كصيره لهاسنينا
يوم شاف الجار بالنسوان عادي
حزب النسوان عن علم يبينا

*

* *

وهولاء « الصلبة » اذا غنوا على « شباباتهم » فى مضارب البدو فهم يذكرون المهادي وذيباً ولهم فى ذلك شعر وغناء تنو يهاً بعمل الرجلين الشمرى والعنزى ، لما لقيا من مكروه ولما احتسبا وصبرا على قتل كل منهما ولده فى سبيل واجبه ووفائه ؛ فكلاهما محسن وفي ...

* * *

الا طابت الجزيرة العربية وطاب مجدها وكرمها وطاب شذاها العاطر الفياح .....؟

يوسف رجيب

المطبعة العلمية

لصاحبها محمد ابراهيم الكتبي
مستعدة لطبع الكتب والمجلات والجرائد
الأسبوعية باتقان وبحروف جديدة
مختلفة الأنواع مع مهاودة في
الأسعار و يوجد لديها لجنة
للتدقيق والتصحيح

يوسف رجيب

قصة المهادي الشمري

طبعت

على نفقة

السيد عطا آل عطا

المطبعة العلمية في النجف — لصاحبها محمد ابراهيم الكتبي

سنة ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م


م. سرمد حاتم شكر